أدبُ الرِّحلة عند مفسري الغرب الإسلامي، الشَّيخ محمَّد الخضر حُسَيْن -أنموذجا-

The journey literature for the interpreters of the Islamic West, Sheikh Muhammad Hussein Al-Khidr -as an example-

د- العيد بلالي [1،*]

[1] جامعة الوادي، (الجزائر)، ballalied@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/12/09 **تاريخ المراجعة**: 2021/12/29 **تاريخ النشر**: 2021/12/31

ملخص:

يمثِّل أدب الرِّحلة عند مفسري الغرب الإسلاميّ جزءًا لا يتجزَّأ من مجهودهم في تحصيلهم العلميّ وتكوينهم التَّفسيريّ،ومن هؤلاء الأعلام برز الشَّيخ محمَّد الخضر حسين الجزائريّ أصولا ونسبًا، التُّونسيّ مولدًا وبلدًا، من خلال رحلته إلى الجزائر التي قام بها سنة 1904م، وقصد منها تصحيح بعض المفاهيم الدّينيَّة التي شوَّهها المحتلُّ الفرنسيّ للجزائر–. فالبحث ف يهدف للإجابة عن الإشكال الآتي:

ما مفهوم أدب الرحلة؟ وما مدى حضوره عند مفسري الغرب الإسلامي؟

ما هي أبرز رحلات الشيخ محمد الخضر حسين؟ هل حقَّق الشيخ مراده ودوافعه من هذه الرِّحلة؟

وللإجابة على هذه التَّساؤلات كانت هذه الورقة البحثية، والتي تهدف إلى إبراز دور مفسري الغرب الإسلامي وعنايتهم بأدب الرَّحلات، ودورهم في محاربة الجهل والخرافة والتصدي لسياسة المستعمر الفرنسي. متبعا في ذلك المنهج التَّاريخي أثناء الترجمة للشيخ محمد حسين الخضر رحمه الله، والمنهج الوصفي التحليلي في الجانب التطبيقي من الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الشَّيخ محمَّد الخضر حُسيْن؛ التفسير، أدب الرِّحلة؛ الغرب الإسلاميّ..

Abstract:

The journey literature of the interpreters of the Holy Quran from the Islamic West was an inseparable part of their efforts in the educational and explanatory formation through their exploration of various cultures of the peoples. The "Journey Literature" of Sheikh Muhammad Hussein Al-Khidr is also an art with a special concept From his trip to Algeria, and other concepts can be discovered and characterized by many features and motives, which distinguished it from the rest of its contemporary trips in the modern era.

It also dealt with the study of the motives and reasons that called the interpreter to visit Algeria during the colonial period, especially during month of Ramadan. Then the value of this journey had mentioned through its scientific, literary, ideological, and intellectual dimensions for the interested reader about the author and type of writing.

Keywords: *Sheikh MuhammedAl-Khidr Husayn; interpretation; The journey literature; the Islamic West.*

* المؤلف المراسل

1. مقدمة:

يعتبر أدب الرحلات واحداً من أنواع الفنون الأدبيَّة التي ترجع جذورها إلى القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة الشِّريفة، إذْ أنه يعكس ويوثق كل ما صادف الرَّحَّالة عبر رحلاته، فينقل كل ما يرآه، ويصف الأماكن التي زارها، كما يشاهد ويلاحظ عادات الشعوب وأهلها، وينقل كل المواقف التي تعرض لها خلال رحلته أو رحلاته التي قام بها خلال حياته.

كما يعدُّ في تراث الغرب الإسلاميّ ديوان علم وأدب، وسجلاً لتاريخِ وأحداثِ الأمم، وكتاب آثار وأخبار، إذ لعب دورًا رائدًا في كشف النِّقاب عن الحياة العلميَّة والسِّياسيَّة والإقتصاديَّة والإجتماعيَّة والثَّقافيَّة للبلدان والأقاليم. وقد أوْلى المغاربة من العلماء والفقهاء والمفسرين لها عناية خاصَّة، ومن هؤلاء المفسرين الرحالة الشَّيخ محمَّد الخضر حسين الجزائريّ أصولا ونسبًا، التُّونسيّ مولدًا وبلدًا، وسنتكلَّم في هذه الورقة العلميَّة البحثية عن: **أدبُ الرِّحلة عند مفسري الغرب الإسلامي، الشَّيخ محمَّد الخضر حُسَيْن -أنموذجا** –في مبحثين؛ كالآتي:

المبحث الأول: مفهوم أدب الرِّحلة ومكوناتها، ومفهوم الغرب الإسلاميّ ودواعي الرحلة عند المغاربة..

المبحث الثاني: أدب الرِّحلة عند محمَّد الخضر حسين نظريًّا وتطبيقيًّا.

ثمَّ ختمت المقال بخاتمة تضمنت أهمَّ النتائج والتوصيات.

وأمَّا طريقة عملي في هذا المقال فكانت على النحو الآتي:

1. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن.
2. اقتصرت في ذكر معلومات الكتاب على اسم المؤلِّف والمؤَّلف، ثمَّ الجزء -إن وجد- فالصَّفحة، حتى لا نثقل على الهامش.
3. لم أترجم للأعلام المذكورين في المتن قصد الإختصار وعدم الإطالة، واكتفيت بذكر تاريخ الوفاة.

بالنِّسبة للدِّراسات السَّابقة: استفدت من:

1. نهلة الحرتاني، الرحلة في القرآن الكريم وأثرها في واقع الأمة الإسلاميَّة، مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، المجلد3، العدد 1، يناير 2017م.
2. بورقبة مريم، أدب الرحلة عند الخضر حسين (الرحلة الجزائرية) أنموذجا، مذكرة ماستر،دراسات جزائرية في اللغة والأدب، اللغة والأدب العربي، جامعة أدرار، 2013م.

2. المبحث الأول: مفهوم أدب الرِّحلة ومكوناتها، ومفهوم الغرب الإسلاميّ ودواعي الرحلة عند المغاربة.

2،1. المطلب الأول: مفهوم أدب الرِّحلة ومكوناتها وطرقها:

1. **أولا: مفهوم أدب الرِّحلة:**
2. **تعريف مصطلح "أدبُ":**

لغة: تعود كلمة الأدب إلى المادّة اللّغويّة (أَدَبَ)، و(أَدَبَ فُلان: أدْباً) أيّ؛ قام بصناعة مأدبة، و(أَدَبَ فُلان القومَ) أي؛ قام بدعوتهم إلى مأدبته، أمّا الآداب -على وجه العُموم- فتُطلق على الأعراف المقرّرة التي يرضاها النّاس[1].

اصطلاحاً: يُعدّ الأدب أحد الألوان التّعبيريّة والإنسانيّة حول أفكار الإنسان وعواطفه ومخاوفه، والتي يعبّر عنها باستخدام الأساليب الكِتابيّة المتنوّعة، والتي تُعطي مجالات واسعة للتّعبير، وفي الواقت الحاضر ظهرت الكثير من الأعمال الأدبية التي كُتبت على شكل روايات، ومسرحيات، ورحلات، مثل (رحلات ابن بطوطة) وغيره[2].

3. تعريف مصطلح "الرِّحلة":

لغة: مادَّتها (رَ حَ لَ)،"فالرَّاء والحاء واللَّام أصل واحدٌ يدلُّ على مضيٍّ في سفر..."[3] ومنها التَّرحيل والارتحال، يُقال: رحل الرَّجل؛ إذا سار، ورجل رحولٌ، وقوم رُحَّل أيْ: يرتحلون كثيرًا، والرَّاحلة من الإبل: البعير القويّ على الأسفار والأحمال. وجاءت الرِّحلة بمعنى التَّرحل والارتحال أيْ: الانتقال من مكان لآخر وهو الرِّحْلة والرُّحْلة.

الرِّحْلة بالكسر: الإرتحال، يقال: دنت رحلتنا، والرُّحْلة بالضَّم: الوَجه الذي تقصده وتريده؛ تقول: أنتم رحلتي[4].

فالمعنى اللغوي لمصطلح الرِّحلة -مما سبق ذكره- يفيد السَّير والانتقال والوِجهة أو المقصد الذي يريد المرتحِل السَّفر إليه.

اصطلاحًا: هي الإنتقال من مكان إلى آخر، سواء أكانت تلك الرِّحلة برِّيَّة أو بحريَّة أو فضائيَّة، روحيَّة[5] أو واقعيَّة[6] حقيقيَّة أو خياليَّة[7] التي تمر بها حياة الإنسان[8].

3. تعريف أدب الرِّحلة: هو مركَّب إضافي متكوّن من "أدبُ" و"الرِّحلة"، والمقصود به: "مجموع الآثار الأدبيَّة التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطَّبيعيَّة التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد "[9]. كما عرفته الموسوعة العربية العالميَّة: بأنَّه "ذلك الأدب الذي يصوِّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان"[10].

ثانيا:مكوّنات أدب الرِّحلة:

1- المعرفة: الرَّحلات ملئية بالعديد من المعارف المتنوِّعة والعلوم المختلفة، منها ما هو ديني، وما هو دينيّ، وما هو تاريخيّ، وما هو أدبيّ، واجتماعيّ، وجغرافيّ، وقد أشار بعض الرَّحالين في مقدِّمات رحلاتهم على أنَّ غايتهم هي إفادة القارئ.

2- السَّرد: من أهمِّ مكوّنات الرِّحلة، يبدأ مع بداية الرِّحلة ويستمرُّ إلى نهايتها.

3- الوصف: الوصف والسَّرد نمطان خطابيًّا، فالرَّاوي يصف حين يتحدَّث عن السَّاكن ويسرد حين يتحدَّث عن المتحرِّك، وبعبارة أخرى، يتَّسم الوصف بالحديث عن المكان أو الأشخاص أو الأشياء ويتَّسم السَّرد بالحديث عن الفعل في الزَّمان ... والوصف يتطلَّب دقَّة ملاحظة من الواصف لكي يستوعب أكثر معاني الموصوف حتَّى كأنَّه يصوِّر الموصوف لك، فتراه نصب عينيك.

4- الشِّعر: يعمد الرَّحَّالة إلى تضمين بعضا من الأشعار، ويرون في ذلك تأكيدًا لكلامهم وتخليق الحيويَّة وإثارة التَّشويق لدى القراء وإبعاد الملل عنهم.

ثالثا : طرق تدوين الرَّحلات: اتَّبع الرَّحَّالون طرائق عدَّة في تدوين الرَّحلات يمكن أن نصنِّفها وفق الآتي:

1- رحلات كتبها أصحابها في أثناء الرِّحلة: "ويخضع تدوينها إلى التَّسلسل الذي سار عليه الرَّحالة، فيدوِّن فيها الأحداث والمفاجآت التي تحصل وفق زمن حدوثها ومكانه"[11].

2- رحلات كُتبت من المذكِّرات التي دوَّنها أصحابها أثناء الرِّحلة: "وهي عبارة عن رؤوس القضايا التي واجهها الرَّحَّالة في طريقه، أو العلوم والفوائد التي استفادها في وجهته، وسلسلة الإسناد التي حصل عليها، والغالب أنَّ الرَّحَّالة كان يحرص على تدوين المذكِّرات وهو في رحلته حتَّى لا تفوته أهمّ المعارف والفوائد ولكنَّه لا يخرج رحلته إلى النَّاس إلَّا بعد التَّنقيح والرَّويَّة"[12].

3- رحلات كُتبت من الذَّاكرة: وهذا الضَّرب من التَّدوين يتمُّ بعد عودة الرَّحَّالة من رحلته إذ يقوم بإملاء رحلته من الذَّاكرة من دون أن يعتمد أصولاً أو ملاحظات مدوَّنة عن رحلته[13].

4- رحلات كتبها غير أصحابها: إنَّ كثيرًا من الرَّحلات لو لم تكن مبادرة غير أصحابها لَما رأت النُّور ولَما عرفت طريقها إلى الشُّهرة والانتشار[14].

المطلب الثاني: مفهوم الغرب الإسلامي، ودواعي الرِّحلة عند الرحالة المغاربة:

أولا: تعريف الغرب الإسلامي وحدوده الجغرافيَّة: يقصد به كلّ الأقاليم الواقعة غرب مصر، وهي منطقة شمال إفريقيَّة، وتقع بين خطَّيْ 15 و 37 شمالاً، وخطَّيْ الطُّول 17 و 25 شرقًا، وهي منطقة جغرافيَّة تضمُّ خمس دول وهي: موريتانيا، المغرب، تونس، الجزائر، ليبيا، وتبلغ مساحتها إجمالاً 6 ملايين كيلو متر مربَّع تقريبًا، يحدُّ المغرب العربي شمالاً البحر المتوسِّط، وجنوبًا مالي وتشاد والنّيجر السّنغال، وشرقًا مصر والسُّودان، وغربًا المحيط الأطلسي[15].

ثانيا: دواعي الرِّحلة عند الرحالة المغاربة:

1. الدَّافع الدينيّ: كان الجانب الرُّوحي طاغيا على المجتمع المغاربي، وتجدر بنا الإشارة هنا إلى بعض تجلِّياته، ومن أهمّها:

أ. الرِّحلة لتأدية فريضة الحجّ: لقد كان القيام بهذه الفريضة رغبة مشتركة وملحة في أغلب مجتمعات الغرب الإسلاميّ الذي يضع الدّين في المرتبة الأولى، ومن هنا كان الرَّحالة منهم مستعدًّا نفسيًّا لتجشُّم أخطار الطَّريق والبعد عن الأهل وبذل كلّ التَّضحيَّات إرضاءً لعاطفته الدِّينيَّة، إمتثالا لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَاتُوكَ رِجَالا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَاتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اُسْمَ اَللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: 26]كما أنَّنا وجدنا أنَّ المسلم المغاربيّ لا يقنع برحلة واحدة إلى الحجّ أو العمرة، ولكنَّه بمجرَّد أن يعود إلى أرضه، تتأجَّج نار الشَّوق لديه فيشدُّ الرِّحال من جديد لمن استطاع إليه سبيلاً.

ب. الرِّحلة الجهاديَّة: ويمكن أن تدخل ضمن الرَّحلات التي كان الباعث الدِّينيّ هو المحرِّك لها والدَّافع إليها، قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: 20]، وتصبح الرحلة الجهادية واجبًا دينيًّا تشتدُّ إليه الحاجة ويفرضه الوضع الأمنيّ حينما ينال العدوّ من المسلمين أو يهدِّد المقدَّسات والمصالح العليا للأمَّة.

ج. **السِّياحة العامَّة:** لم تكن أيضاً خارجة عن الإطار الدِّينيّ، فليس من المبالغة أو التَّعسُّف إذا اعتبرنا باعثها ومحرِّكها من الدِّين، ودليله ما وردفي آيات قرآنيَّة وأحاديث نبويَّة من حثٍّ على الضَّرب في الأرض والتَّعرُّف على البلدان المختلفة من أجل أهداف دينيَّة أو علميَّة أو للنَّفع العامّ...، أو من أجل الإعتبار والاتِّعاظ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت: 20].

2. **الدَّافع العلميّ:** له صلة أيضاً بالدَّافع الدِّينيّ أو هو نتيجة له، لأنَّ طلب العلم مرغوب فيه مثاب عليه في الإسلام، دعا إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَة مِّنْهُمْ طَائِفَة لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 123] ، وجاء في السنّة النبوية قول النبي–صلى الله عليه وسلَّم-: "من خرج من بيته ابتغاء العلم وضعت الملائكة أجنحتها له رضاً بما يصنع"[16]، ومن هنا اهتمَّ علماؤنا منذ القديم بالرِّحلة، فقطعوا الصَّحاري بحثًا عن فائدة أو رجاء لقاء عالم، أو رغبة في تصحيح مسألة. حتَّى أصبحت الرِّحلة أمرًا لازماً للعلم عامَّة وللحديث خاصَّة، والأمثلة على هذا من تراثنا الحافل كثيرة ومتعدِّدة، فقد قال عبد الله بن مسعود –ﷺ-: "ما أنزلت آية إلَّا وأنا أعلم فيما أنزلت ولو أنَّني أعلم أنَّ أحدًا أعلم بكتاب الله منِّي تبلغه الإبل والمطايا لأتيته"[17]. ممَّا جعل مفسري الغرب الإسلامي يولونه اهتماما بليغا ولو كلَّفهم ذلك الغالي والنَّفيس، ولقد أورد ابن العربي مسألة من مسائل الخلاف في بعض كتبه حرَّرها وهو في العراق وقال: "لو لم أظفر في رحلتي إلَّا بهذه المسألة لكفتني"[18].

وهناك أمر جدير بالذِّكر والوقوف عنده هو خصوبة البيئة المغاربيَّة ثقافيًّا، فإنَّ معظم الرَّحَّالة بالغرب الإسلاميّ لم يرحلوا إلى الشَّرق إلَّا بعد اكتمال ثقافتهم وإلمامهم بفنون مختلفة من العلوم[19]، السَّبب الذي جعل المغابة يحظَوْن بالتَّكريم والتِّرحاب من قِبل البلدان المشرقيَّة.

إنَّ الرِّحلة العلميَّة لم تكن من أجل الطَّلب والتَّلمذة فقط، ولكنَّها كانت تتوخَّى غايات ثقافيَّة أخرى أهمُّها:

- زيارة المراكز الثقافيَّة المشرقيَّة: فالمعروف عن المغاربة أنَّهم كانوا منجذبين نحو الشَّرق لِما كان يشتمل عليه من مراكز ومدارس ومكتبات.

- **الرِّحلة الحديثيَّة:** لقد اشتهر المغاربة بهذا الأمر منذ القديم، فعرِفوا بعنايتهم بالحديث وطرق رواياته، وطلب علوِّ السَّند، والبحث عن أحوال الرُّوَّاة...، مقتدين في ذلك بعمل السَّلف الصَّالح، فعن أحمد بن حنبل أنَّه قيل له: " أيرحل الرَّجل في طلب العلوّ؟ فقال بلى والله شديدًا لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر ﷺ فلا يقنعهما حتَّى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه"[20]. وقال سعيد بن المسيّب "إن كنت لأسير الأيَّام واللَّيالي في طلب الحديث الواحد"[21].

- جلب الكتب والمؤلَّفات العلميَّة: من الدَّوافع التي كان يسعى إليها الرَّحالة في الغرب الإسلاميّ جلب الكتب والمصادر من الشَّرق والاطِّلاع على مكتباتهم وما وُجد فيها[22].

- لقاء العلماء: وقد كان الدَّفع من السَّعي إلى لقاء العلماء والاتِّصال بهم أحيانا اكتساب مناهج علميَّة جديدة، وطرق وأساليب متطوِّرة في التَّعليم والتَّأليف وغير ذلك[23].

3. بناء الشَّخصيَّة العلميَّة وإثبات الذَّات: فالرِّحلة إلى الشَّرق عند الكثيرين من العلماء المغاربة لم يكن دافعها دينيًّا أو علميًّا أو سياحيًّا كما قد نتصوَّر، ولكن دافعها كان إثبات الذَّات، لأنَّ كثيرًا من المغاربة لم

ترفع مكانتهم العلميَّة إلَّا بعد رحلتهم وتزكية المشارقة لعلمهم، وثنائهم على مستواهم العلميّ الجيّد، وهكذا ينظر إلى الرَّحَّالة بعد عودته من رحلته على أنَّه قد استكمل أدوات البحث والمعرفة، واكتسب المناهج المعرفيَّة المطلوبة[24].

4. الدَّافع السِّياسيّ: إذا كنَّا قد وجدنا من قبل أنَّ جلَّ الرَّحلات إمَّا أن يكون باعثها دينيًّا أو علميًّا، فإنَّه لا ينبغي أن نهمل الظُّروف والأوضاع السِّياسيَّة التي كانت توجّه الحياة وتتحكَّم فيها، ثمَّ فرضت نوعًا من التَّوجيه لرحلات عديدة، تتوخَّى غايات أملتها الحياة السِّياسيَّة العامَّة ومن أهمّ هذه الغايات:

- **مصاحبة الملوك:** وهذا النَّوع من الرِّحلة لا يهتمُّ فيه الرَّحالة بذاتيَّته إلَّا بقدر محدود، فرحلته بصحبة تحرُّكات الملوك والمسؤولين ورجال الدَّولة، الغاية منها تدوين كلّ مراحل هذه الرِّحلة الرَّسميَّة، وتسجيل الأحداث المختلفة.

- **الرِّحلة للقيام بسفارة:** إنَّ السُّفراء قديمًا لم يكونوا يكتفون بتبليغ الرَّسائل وتأدية المهام المنوطة بهم وإنَّما يغتنمون فرصة حلولهم بالبلد المبعوثين إليه ليتفرَّغوا للمناقشة والمناظرة في مجالس العلم وحلقاته[25].

- **الرِّحلة الإضطراريَّة:** وهي الرِّحلة التي لم يتوخَّ صاحبها إلَّا الهروب ممَّا أحاط به من مشاكل، والبحث عن مكان يطمئنَّ فيه، وهذا الضَّرب من الرَّحلات يعكس الحياة السِّياسيَّة والأوضاع الأمنيَّة والإجتماعيَّة المضطربة في تلك الفترة فالباعث كان سياسيًّا، ويمكن ربطه بما كانت عليه أحوال المسلمين في الأندلس إذْ ساد الشُّعور بأنَّ الأندلس دار حرب، وبأنَّها أصبحت ضعيفة لا يطمئنّ فيها المسلم على دينه ونفسه وماله، فمن الأولى والأفضل الفرار بالدِّين والمال والنَّفس إلى البلاد الإسلاميَّة شرقا وغربا وعلى الأخصّ الغرب الإسلاميّ الذي يجدون فيه الملاذ والاطمئنان[26].

4. دو افع اقتصادية: من أهمّ دوافع الرَّحلات، التِّجارة وفتح أسواق جديدة لمنتجات محليَّة في بلاد أخرى.

5. دو افع صحيَّة: كالسَّفر للعلاج أو الإستشفاء، وقد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوّث أو قد يكون لإراحة النَّفس.

6. دو افع أخرى: وهناك أسباب أخرى للارتحال، كالسَّخط على الأحوال وضيق العيش، أو الهروب من عقوبة. وأيًّاما كان الغرض من الرِّحلة فإنَّها في أغلب الأحوال سلوك إنسانيّ حضاريّ، ويؤتي ثماره النَّافعة للرَّحَّالين، فليس المرتحِل بعد الرِّحلة هو نفسه قبلها، ومن هنا تصبح الرِّحلة اليد التي تمتد لتقرِّب شعوبا من شعوب وأقواما إلى أقوام وسبحان من قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات، الآية: 13]، وثمار الرِّحلة لا تتوقف عند التَّعارف وصقل الشَّخصيَّة أو كشف المجهول من طبائع الشُّعوب فحسب؛ لكنَّها تجوّد بالمكاسب العلميَّة والأدبيَّة، خاصَّة إذا كان الرَّحالة متمتعا بقوَّة الملاحظة ويقظة الحواس، وحبّ المحاورة والرَّغبة في التَّحصيل والحرص على التَّدوين والتَّسجيل[27].

3. المبحث الثاني: أدب الرِّحلة عند الشَّيخ محمَّد حسين الخضر نظريا وتطبيقيا.

3،1. المطلب الأول: ترجمة الشَّيخ محمَّد حسين الخضر وأهم رحلاته وأعماله:

1.مولده ونشأته: وُلِد الشَّيخ محمَّد حسين الخضر في مدينة نفطة بتونس في: 16أغسطس 1876م أصل أسرته من الجزائر، والده الشَّيخ الحسين بن علي بن عمر، المعروف والمشهود له بالتُّقى والصَّلاح والزُّهد، من

قرية طولقة ببسكرة، وأصل أمّه السَّيّدة حليمة السَّعديَّة من وادي سوف بالجزائر أيضًا وأبوها هو الشَّيخ مصطفى بن عزوز وخاله الشَّيخ محمد المكي بن عزوز.نشأ الشَّيخ في أسرة علم وأدب من جهتي الأب والأم، وكانت بلدة نفطة التي ولد فيها موطن العلم والعلماء آنذاك.حفظ القرآن، ودرس العلوم الدِّينيَّة واللّغوية على يد عدد من العلماء منهم؛ خاله الشَّيخ محمَّد المكي بن عزوز الذي كان يرعاه ويهتمّ به، ولمَّا بلغ الشَّيخ سنَّ الثَّالثة عشرة انتقل إلى تونس مع أسرته ودرس في جامع الزَّيتونة وهناك درس على خاله محمَّد المكيّ بن عزوز الذي كان له شهرة كبيرة بالجامع ويدرس فيه مجَّانًا، ودرس على يد مشايخ آخرين أبرزهم الشَّيخ سالم بوحاجب الذي كان من أعمدة الإصلاح في تونس، درس على يديه صحيح البخاري، وقد تخرج الشَّيخ من الزيتونة سنة 1898م، حيثُ ألقى دروسًا في الجامع في فنون مختلفة متطوّعًا، وبقي كذلك مع حضور مجالس العلم والأدب المختلفة.

2. رحلاته وأعماله: رحل الشيخ في أول أمره إلى الشرق سنة 1313 هـ وما كاد يصل إلى طرابلس الغرب ويستقر بها حتى عاد إلى تونس فلازم جامع الزيتونة، وفي شهر إبريل سنة 1904م، أنشأ مجلَّة "السَّعادة العظمى"، وهي أوَّل مجلَّة عربيَّة ظهرت في تونس، وكانت تصدر كل نصف شهر، ولم يصدر منها سوى 21 عددًا ثم انقطع صدورها، وقد كان الشيخ يكتب أغلب مقالاتها. وَلِيَ الشيخ قضاء بنزرت سنة 1905م، وقام بالتَّدريس في جامعها الكبير، وما لبث أن استقال وعاد إلى تونس وتطوع للتدريس في جامع الزيتونة، ثم أُحيل إليه تنظيم خزائن كتب الجامع، في سنة 1915م، شارك في تأسيس الجمعيَّة الزَّيتونيَّة، وخلالها عين مدرّسا رسميًّا بجامع الزَّيتونة، وقام خلال هذه الفترة بالتَّدريس والخطابة في الجمعيَّة الخلدونيَّة، فلفت الأنظار بسعة علمه.

حصل على عضويَّة هيئة كبار العلماء برسالته "القياس في اللغة العربية" سنة 1950م، ثم اختير شيخا للأزهر في 16 سبتمبر 1952م، استقال في 7 يناير 1954م احتجاجاً على إلغاء القضاء الشَّرعي ودمجه في القضاء المدني.وهذه أهمّ رحلات الشَّيخ نوجزها كالآتي :

1- رحلته إلى طرابلس 1317هـ، والتي دامت بضعة أيام فقط.

2- رحلته إلى الجزائر سنتيْ 1321هـ/1903م و1322هـ/1904م، ثمَّ 1327هـ وكانت الرِّحلة الثَّالثة والأخيرة إليها.

3- رحلته إلى اسطنبول سنة 1330هـ، والتي زار خلالها القاهرة، فدمشق التي استقر فيها، وشغل مناصب عديدة فيها ليعود إلى مسقط رأسه تونس في نفس السَّنة.

4- ليستأنف الرِّحلة من جديد وينزل مصر والشَّام، والمدينة المنوَّرة، والقسطنطينية سنة 1336هـ، فدمشق ثمَّ ليستقر في مصر إلى حين وفاته. وننوه هنا أن المقصود هو الرحلات المدونة لا غيرها، التي تعتني بأدبيات الرحلة، وجوانب السرد والوصف فيها.

3.وفاته: توفي في 13 رجب 1377 هـ 28/ فبراير 1958م، تاركا وراءه العديد من المؤلَّفات[28] في الفقه، والشَّريعة، والتَّفسير، والأدب، والشِّعر، واللُّغة... الخ. ومن أبرزها: محمَّدرسول الله خاتم النَّبيين، دراسات في العربيَّة وتاريخها، الخيال في الشِّعر العربيّ، الدَّعوة إلى الإصلاح...الخ[29].

4.3. المطلب الثالث: الدِّراسة التَّطبيقيَّة التَّحليليَّة لرحلة الشَّيخ محمَّد الخضر حسين في الجزائر:

نتحدث عن رحلة الشَّيخ محمَّد الخضر حسين إلى الجزائر من خلال ما يأتي:

أولا: الأحداث: جلي بالذكر أن لكل رحلة تامة ثلاث محلات مكونة لمسارها الكامل.

1-مرحلة الإنطلاق: لم يذكر الشيخ قصة انطلاقه في نص رحلته، وإنما يمكن الجزم هنا أنها (تونس)، ففي هذه الفترة كان مقيما بها سنة 1904م.

2-مرحلة المسار: تشكل هذه المرحلة أهم مرحلة من مراحل الرحلة، ويتشكل خطها من نقطتين هما، نقطة انطلاق ونقطة وصول على النحو التالي:

أ.تونس-سوق أهراس: تطرق الشيخ للحديث عن زمن سفره، وظروف رحلته التي قادته إلى (نقع) بسوق أهراس، أين جاب شوارعها، وأخذ فكرة عن الحياة العامة فيها، كما تحدث عن مسامرة علمية عقدت أثناء تواجده في مسجد من مساجدها، تعرف خلالها على شيوخ أجلاء.

ب. سوق أهراس - تبسة: عرض فيها الرحالة الحالة الثقافية لمدينة (تبسة)، والتي كانت تخلوا من أثار التعليم، لولا وجود بعض أهالي الجريد فيها، غير أن ذلك لم يمنع تمسك سكانها بالديانة الإسلامية، ومخافة الشبهات، قياسا على ما لاحظه من إقبال التجار على المسجد للشورى، وسماع الفتوى.

ج.تبسة-عين البيضاء: يذكر خلالها انشراح صدره لمحاورات علمية، مع وفد من أهل العلم، ومن بينها مسألة الفرق بين الكل والكلية.

د. عين البيضاء- قسنطينة: التي استهلها بالحديث عن استطلاعه لبعض معالمها الدينية، وآثارها القديمة والحديثة، فقام يعذد مدارسها، وجوامعها، ولقائه بأشهر علمائها كالشيخ "حمدان بن الونيسي"، وكالعادة يتطرق لذكر بعض المسائل التي تخص تفسير القرآن و الربط بين أباته[30].

هـ. قسنطينة باتنة: هذه الرحلة وجد فيها رفيقا يؤنسه مكونا في شحت ابن عمه "الشيخ الحسن"، الذي طاف به مدينة (باتنة)، وعرفه على رجال من أهل العلم والأدب فيها، عقد السمر معهم مقدار ثلاث ساعات كاملة ختمها شعرا.

و.باتنة - عاصمة الجزائر: تمثل (الجزائر العاصمة) النقطة الهامة من هذه الرحلة، ذلك لأنها الهدف الأساسي من الرحلة، وأقام بما أياما وليال، قضاها بين التحوال فيها، وزيارة مدارسها الإسلامية، ومساجدها القرآنية، وعقد المحاضرات، ومناقشة المسائل الفقهية والدينية.

3- مرحلة الوصول: قام الشَّيخ برحلته إلى الجزائر رحلة عامة، شملت عدة رحلات جزئية باتجاه بعض من مدنها التي كانت منعرج رحلته، أما طريق عودته إلى بلده (تونس) فلم يذكر شيئا عنه، غير أنه لما استقر به المقام، قبض قبضة من آثار سفره ونبذها في صحيفة السعادة[31].

ثانيا: الأشخاص: 1- التعريف بالذات: لم يذكر الشيخ لنا أي تحديدات لصفاته الجسمانية، وإنما عرض لنا شيئا من أفكاره، ويمكن إجمال بعض الصفات المعنوية فيما يلي: الإمام الناصح، والمفتي القاضي، والعبد الضعيف، والفقيه البليغ، والمفسر الراشد، والإنسان المسافر، والصحفي المطلع، والمطالع المجد ...

فلا يخفى علينا أن تحصيله العلمي، ونبوغه الفكري ، وانتمائه لعائلة ذات علم وشرف ، كان له الأثر العميق في تكوين شخصيته الإسلامية العربية، التي برزت في الساحة المغاربية، والمشرقية أيضا.

2- تصوير الآخر: ما يلفت الانتباه أن رحلة "الشيخ الخضر حسين" من أولها إلى أخرها، تزخر بذكر خاص لأهل العلم والعلماء، ذلك أن الرحلة في حد ذاتها رحلة علمية، اهتم صاحبها بإيراد العديد من الشخصيات والأعلام المغمورين والمعلومين على حد سواء، مع ذكر لأوصافهم الحسية تارة، والمعنوية تارة أخرى.

أ-طلبة العلم: وقد ذكر الرحالة أصنافا عدة، نجملها في الأتي:

- **المطالعون:** الموالون على مطالعة الصحف والكتب.

- **المتخرجون بالجامع الأعظم:** وهم المتمدرسون الحاصلون على شهادة التخرج بجامع الزيتونة بتونس.

- **تلامذة المدارس والمساجد:** كان دقيق الملاحظة والوصف معلقا على كل ما وقع عليه نظره فيقول: "رأيت في يد أحدهم

سفرا"، وكان ذلك الشخص تلميذا في مسجد بسوق أهراس يدرس التوحيد، وما تيسر له من العلوم الدينية[32].

ب-الشيوخ والعلماء: ذكر الشيخ العديد الشخصيات منهم:

- المسترشدون: (ج مسترشد)، وهو الذي يقوم بدور الإرشاد والتوجيه في المسجد، وقد ذكر الشيخ

تدخل أحدهم بسؤال نصه: «هل كان النبي ﷺ يحلق رأسه أم لا؟»

- القضاة: كالشيخ "محمد الصالح بن الشايب"، العدل بالمحكمة القضائية فوصفه بوصف دقيق قائلا:«

رجل تلوح على وجهه سمة أهل العلم».

- المدرسون: وهم كثر منهم شخصيات مغمورة وأخرى معلومة نذكر على سبيل المثال لا الحصر: - الشيخ "محمد العربي بن قشوط" ، والشيخ "المسعود بن علي"، والشيخ "أحمد بن ناجي"» وهم أئمة وشيوخ لقيهم الرحالة في من مساجد عين البيضاء (أم البواقي حاليا).

ج-رجال من العامة:

أعيان التجار: منهم الذين أتوا للاستفسار في أمور تجارتهم بمدينة (تبسة)[33]. "علي بن الحداد": أحد أفاضل التجار بالجزائر العاصمة، ويملك محلا تجاريا تتسامر فيه جماعة من أعيان العلماء.

د- المر افقون للرحالة: ويتمثل في ابن عمه الشيخ "الحسن"، الذي رافقه في السفر من (قسنطينة) إلى (باتنة) ، وهو أيضا بمثابة الدليل في الرحلة، كونه يعرف مدينة باتنة وشوارعها، وبعض رحال أهل العلم والأدب فيها.

ثالثا: سلم الأمكنة:

1- العمارة المدنية:

أ- المدن والمباني: ومثالها:

سوق أهراس: التي قال في وصفها الشيخ: "تطوّفا في أغلب مناهجها التسعة، وفسحنا الخاطر في بناءاتها المتناسقة، ولعدم كبر مساحتها يمكن الإحاملة بها في مدة وجيزة"[34]، وهي دلالة على صغر حجمها، ورحب أزقتها.

ب- المكتبات: ومثالها: المكتبة العمومية بالجامع الأخضر(قسنطينة)، وتحتوي على عدد من الكتب المطبوعة المتداولة.

2- العمارة الدينية

أ - المساجد والمدارس القرآنية: ومثاله: ذكر الشيخ مسجدًا بسوق أهراس، كان محل طرح عدة مسائل في العبادات وغيرها.

المدرسة الثعالبية: وقد ذكر الشيخ أنه تم بناؤها سنة 1904م، وافتتحت باحتفال رسمي يوم الإثنين 17 أكتوبر من نفس السنة، كما يورد هدفها في تعليم الوطنيين العلوم العقلية، والنقلية، وتخريج وتكوين القضاة والعدول.

ب-الأضرحة والمقابر: ومثاله: ذكر الشيخ في رحلته زيارته للولي الصالح الشيخ سيدي عبد الرحمان الثعالبي الموجود بالجزائر العاصمة.

رابعا: معجم الرحلة الجزائرية: لا ريب وأن لكل نص أدبي معجم خاص به، كما هو الحال بالنسبة لأدب الرحلات، الذي يمتلك خصوصيَّة تركيبيَّة ودلاليَّة، تستند إلى مكون السفر المركزي في البناء الرحلي -السفر- يأخذ أبعاده الميزة من المتن أو المضمون الشامل لنص الرحلة عامة، والمعجم خاصة.

1. الرِّحلة الجزائرية والسفر:

تقوم الرحلة الجزائرية على معجم السفر المجسد على أرض الواقع، فتحولت مفردة "السفر" إلى مرادفات غنية أثرت المعجم اللغوي من جهة، ومعجم الإرتحال أو الرِّحلة من جهة ثانية، ومن أهمِّ هذه المرادفات نذكر الآتي:

- السياحة: التجوال في الأرض (سياحة).
- الظعن: الرحلة.
- الحركة ضد الثبات (تحرك).
- يخب ويضع ويحمل ويضع: وهي صفات القطار المتحرك.
- السير، المسير دلالة على طول المسافة.
- الطَّي، يطوي دلالة على السرعة والإنتقال
- الإياب: طريق العودة.
- الطواف (تطوفنا): الدوران.
- الإنصراف، الوداع[35].

4.خاتمة

في ختام هذه الورقة العلميَّة يمكن تسجيل النَّتائج والتَّوصيَّات الآتية:

1- تجذُّر أدب الرِّحلة عند المسلمين في القرآن والسنَّة النَّبويَّة المطهَّرة.

2- اهتمَّ مفسّروا الغرب الإسلاميُّ بفنِّ "أدب الرِّحلة" وأوْلَوْه عناية خاصَّة، حيثُ اعتبروه ركيزة لتمام شخصيَّة المفسِّر وعلمه.

3- استغلَّ الشَّيخ أدب الرِّحلة في الدَّعوة إلى الله والإصلاح الإجتماعيّ، وساعده على ذلك قدرته وموهبته الفكريَّة والثَّقافيَّة والعلميَّة.

4- تعدَّدت دوافع الرِّحلة عند الشَّيخ محمد حسين الخضر، منها ما هو دينيّ، وثقافيّ، وعلميّ، وسياحيّ، وتاريخيّ، وأدبيّ...نتج عنه كمٌّ هائل من المعارف.

5- امتازت رحلة الشَّيخ محمَّد حسين الخضر بالذَّاتيَّة تدوينًا والواقعيَّة وصفًا.

6- كرَّر الشَّيخ محمَّد حسين الخضر الرِّحلة إلى الجزائر مرَّتين دونًا عن غيرها من البلدان؛ وذلك حُبًّا واستزادة في التَّعرُّف أكثر على عادات وطبائع أصله.

ومن أهمَّ التَّوصيَّات:

1- تجسيد أدب الرِّحلة واقعًا من خلال برمجة رحلات لطلَّاب الجامعات إثراءً لأدب الرِّحلة واقتداءً بالعلماء الرَّحَّالة في الغرب الإسلاميّ.

2- إقامة ملتقيات وطنيَّة ودوليَّة للتَّعريف بأدب الرِّحلة في الغرب الإسلاميّ وأعلامه.

3- إثراء المكتبات الوطنيَّة والجامعيَّة بمؤلَّفات حول أدب الرِّحلة.

5. قائمة المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

صحيح مسلم

المؤلَّفات:

1. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط2، إيران، دن.
2. ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث، تح: عبد اللطيف الهميم- ماهر ياسين الفحل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
3. أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، ط1، مؤسسة التراث، الرياض ، 2002م.
4. تيسير محمد الزَّيات، الأدب العربي لغيرالناطقين بالعربية، دار المنهل، الأردن، 2014م. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، 1979م. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دن.
5. الحسن الشاهد، أدب الرحلة بالمغرب، دار عكاظ للطباعة والنشر، 1990م.
6. الخطيب البغدادي، سياسة الرحلة في طلب الحديث، تح: نور الدين عتر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1395هـ
7. ضياء الدين المقدسي، الأحاديث المختارة، ط3، دار خضر للطباعة والنشر، لبنان، 2000م.
8. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984م.

علي إبراهيم كردي، أدب الرحل في المغرب والأندلس، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2013م.

9. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2002م.
10. مجدي وهبه، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، دن.
11. مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، ط2، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1999م.
12. محمد الجوادي، محمد الخضر حسين، ط1، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م.
13. محمد الخضر حسين، محاضرات المجمع العلمي العربي، دمشق، 2017م.
14. محمد صالح الجابري، رحلات جزائرية، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2001م.

الأطروحات والرسائل العلمية:

1. فكه، عبد الشكور محمد سعيد، 2012م، جهود علماء المغرب العربي في تفسير القرآن الكريم من الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية أصول الدين، السودان.

المقالات:

1. ناز، روبينه، مؤيد فاضل، أدب الرحلة: أهميته وأسلوبه وخصائصه وتطوره، مجلة الإيضاح، العدد 34، 2017م.
2. نهلة الحرتاني، الرحلة في القرآن الكريم وأثرها في واقع الأمة الإسلامية، مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، المجلد 3، العدد 1، يناير 2017م.

المو اقع الإلكترونيَّة:

https://www.diae.events/events/69137

هوامش وإحالات المقال

[1] ينظر: إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، 9/1.

[2] ينظر: تيسير محمد الزيات، الأدب العربي لغير النَّاطقين بالعربية، 14/1.

[3] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة: رحل، 497/2.

[4] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 279.

[5] ويقصد بها: رحلة ما قبل الخلق ومثاله: خلق آدم عليه السلام ومن بعده ذريته، وبعده أيْ: بعد الخلق: خروج الإنسان من بطن أمه للحياة الدنيا ثم الخروج منها بعد موته لأخراه، ومثاله ما ورد في سورة ق: 19- 25، وسورة الواقعة: 83-93، وسورة القيامة: 24-30.

[6] وتكون بالانتقال من مكان لآخر على أرض الواقع.

[7] ويقصد بها الرحلة الذهنيَّة التَّخيُّليَّة التي لا أساس لها على أرض الواقع.

[8] ينظر: نهلة الحرتاني وأخرون، الرحلة في القرآن الكريم، ص: 6.

[9] مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص: 17.

[10] الموسوعة العربية العالميَّة، مجموعة من العلماء والباحثين، 141/11.

[11] ينظر: علي إبراهيم كردي، أدب الرِّحل في المغرب والأندلس، ص: 14.

[12] ينظر: الحسن الشَّاهد، أدب الرِّحلة بالمغرب، 58/1.

[13] ينظر: علي إبراهيم كردي، أدب الرِّحل في المغرب والأندلس، ص: 15.

[14] ينظر: الحسن الشَّاهد، أدب الرِّحلة بالمغرب، 58/1.

[15] عبد الشكور محمد سعيد، جهود علماء المغرب العربي في تفسير القرآن الكريم من الفتح الإسلامي حتَّى العصر الحديث، ص: 16.

[16] أخرجه ضياء الدين المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم الحديث: 2582، 32/8.

[17] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه، رقم الحديث: 2463، 148/7.

[18] محمد الخضير حسين، محاضرات المجمع العلمي بدمشق، 320/3.

[19] الحسن الشَّاهد، أدب الرِّحلة بالمغرب، 86/1.

[20] ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث، 354/1.

[21] الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، 127/1.

[22] الحسن الشَّاهد، أدب الرِّحلة بالمغرب، 92/1.

[23] المرجع نفسه،96/1.

[24] الحسن الشَّاهد، أدب الرِّحلة بالمغرب، 97/1.

[25] المرجع نفسه،100/1.

[26] المرجع نفسه،103/1.

[27] فؤاد قنديل، أدب الرِّحلة في التُّراث العربي، ص: 20-23.

[28] وقد جمعها المحامي علي رضا الحسيني ضمن كتاب واحد أسماه بـ: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمَّد الخضر حسين، ويحتوي على 15 مجلَّدًا.

[29] ينظر: محمد الجوادي، محمد الخضر حسين، ص: 17-34.

[30] ينظر: محمد صالح الجابري، رحلات جزائرية، ص: 25-33.

[31] ينظر: محمد صالح الجابري، رحلات جزائرية، ص: 25-50.

[32] المرجع نفسه، ص: 25-31.

[33] ينظر: محمد صالح الجابري، رحلات جزائرية، ص: 28-42.

[34] ينظر: محمد صالح الجابري، رحلات جزائرية، ص: 26-31.

[35] ينظر: محمد صالح الجابري، رحلات جزائرية، ص: 32-40.